

الأدلة الإسلامية في المدينة

في عهد الرسول ﷺ

المسجد .. المواخاة .. الدستور

د. محمد رجاء حنفي عبد المتجلي

إن سياسة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه في أمته،
ومع الأمم الأخرى، تعدّ منهاجاً فريداً في الحياة السياسية،
لأنها قائمة على أسس ربّانية، يراد منها التقارب لا التباعد،
والاتحاد لا التفرّق، بين الأمم، على اختلاف أجناسها وألوانها،
وشرائعها وقوانينها.

كما يراد من هذه السياسة الحرص على تطبيق مبدأ المساواة بين
البشر جميعاً، في الحقوق والواجبات، واعتبار المجتمع الإنساني
مستولاً مسئولية كاملة عن المحافظة على الأرواح، والأموال
والممتلكات، والأعراض والأوطان، في حدود العدل الإلهي،
والتشريع السماوي الرحيم.



ولن تستطيع أي دولة أن تبني مجدها وحضارتها، وتعلي كياناتها بين الأمم إلا إذا كان دستورها الخاص بها، وقوانينها المعمول بها، وأعمالها القائمة على أسس رحيمة، صالحة لأن نفع بعدها ورحمتها كل حاجات أفرادها، مهما تطوّرت الحياة، واختلفت الأماكن.

ولقد كان نظام الدولة التي أنشأها رسول الله ﷺ، من نوع جديد، يختلف اختلافاً كلياً عن جميع الأنظمة، فقد كان هذا النظام مزيجاً من الشورى، والاستقلال بالحكم، يقول المولى تبارك وتعالى: «وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» - سورة آل عمران: الآية (١٥٩).

وكان هذا النظام في إطاره العام دينياً، يعتمد على الأحكام الشرعية وتعاليم السماء، ولكنه في تفاصيله وتطبيقات أحكامه شوري.

وقد أقرت الدولة الإسلامية مبادئ على جانب كبير من الأهمية، وهما:

الجانب الأول: حرية العقيدة :

وبموجب هذه الحرية تكفل الدولة لأصحاب العقائد المختلفة الحق في الحياة، وتضمن لهم الاستقرار، وتيسر لهم سبيل الأمن والأمان، ووسائل الطمأنينة، وتتكفل بحمايتهم ورعايتهم ماداموا مسلمين، لا يحدّثون فتنة داخل «المدينة»، ولا يتآمرون على الدولة، ومصالحها العليا، فالإسلام لا يرغب أحداً على الدخول فيه، وليس لأحد أن يجبر أي إنسان بأي وسيلة على الإيمان بشيء لم يصل إليه بعقله وقلبه، فحرية العقيدة مكفولة ومضمونة على الدوام، ولا يستطيع أحد أن ينال منها، أو يتعرض لها بالمحو أو الإثبات، لأنها تتعلق بضمير الإنسان ووجدانه، ومن المستحيل التحكّم فيها.

بوالنصوص القرآنية الكريمة صريحة في ذلك، يقول المولى سبحانه جلّ وعلا: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ - سورة البقرة: الآية (٢٥٦).

ويقول مخاطبا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» - سورة يونس: الآية (٩٩).

الجانب الثاني : المساواة :

إن جميع الرعايا في الدولة متساوون في الحقوق والواجبات مساواة تامة، بلا أدنى فرق بين طائفة وأخرى، فالكل أمام عدالة القرآن الكريم وعدالة الإسلام سواء .

وقد قرّر الإسلام مبدأه الأساسي وهو المساواة بين الناس في أكمل صوره، وأمثل أوضاعه، واتخذ دعامة لجميع ما سنّه من نظم لعلاقات الأفراد بعضهم ببعض، وطبقه في جميع النواحي التي تقتضي العدالة الاجتماعية، وتقتضي كرامة الانسان أن يطبق في شئونها.

سياسة الرسول الكريم الداخلية:

لقد برزت عبقرية رسول الله ﷺ، وتجلّت مقدرته العظيمة في تدبير شئون المسلمين، والدولة، والاستعداد للمستقبل، فلم تكن مهمته مقصورة على تبليغ رسالة السماء التي نزلت عليه، بل كانت أكثر من ذلك، فشملت تنظيم «المدينة»، وكان صلوات الله وسلامه عليه يقدر هذه المسئولية من أول الأمر، ففى «الأوس» و«الخزرج»، وهم سكان «المدينة» الأصليون، وكانت تحدث بينهم مشاحنات ومنازعات كثيرة، وكان اليهود يجاورونهم، ولهم تاريخهم

الحافل بكل مظاهر الغدر والخيانة والقتل، ونسج خيوط الفتن، وتدمير الموامرات، وإشعال نار الحرب، وإلى جانب هؤلاء كان هناك المنافقون الذين يضمرون للإسلام والمسلمين كل غدر وشر، وإن بدوا في الظاهر من رجال الصفوف الأولى أحيانا، عند الصلاة، وعند توزيع الغنائم . . .

وأصبحت هاتان القيلتان من «الأوس»، «الخزرج»، في أمس الحاجة إلى من يوفق بينهما، ويوحد صفوفهما، كي يتمكن الفريقان من العيش في هدوء وانسجام، وقد انضم إليهما المهاجرون . . .

ومع أن المهاجرين قد استقبلوا استقبالا حسنا، وعوملوا معاملة ممتازة من إخوانهم الأنصار، إلا أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه رأى أن يحتاج لإقامتهم في «المدينة» . . .

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فرسول الله ﷺ، قد ترك من خلفه «قريشا»، وهي على أعلى درجة من العداوة للمسلمين لا يمكن تصورها، ويعلم مدى قدرتها على الإعتداء على المسلمين، والتحرش بهم، وأنها لن تدخر وسعا في سبيل إلحاق الضرر بهم، فلا بد إذا والحالة هذه من الوقوف على أهبة الاستعداد، واتخاذ الإجراءات اللازمة لمواجهة كافة الاحتمالات، ومواجهة هذا الخطر المتوقع من جانب «قريش»، وهذا لن يكون إلا بتقوية الجبهة الداخلية، والعمل على تماسكها ووحدتها، لأن وحدة الأمة أهم أسس بنائها، والحفاظ على كيانه وقوتها . . .

وقد واجه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه هذا الموقف منذ البداية مواجهة تدل على سعة تفكيره، وقوة إدراكه للأمور، وأبدى من بعد النظر ودقة التنظيم ما جعل سكان «المدينة» يعيشون في استقرار تام، وترابط قوي، وقدرة على النمو، جعلتهم يعيشون ظروف احتمالات الغزو الخارجي بجدارة أكسبتهم

النجاح والنصر في كل عمل يقومون به ، فاستطاعوا أن يقيموا الدولة الإسلامية العظيمة .

ولقد اجتمعت في شخصية رسول الله ﷺ ، شخصية أمة بأكملها ، فهو الذاعية الحكيم ، والمرتب الحنون الرحيم ، والقائد المظفر ، والسياسي الملمهم ، والاجتماعي الممتاز ، والاقتصادي الرائع ، والمشرع العبقري .

وقد وضع صلوات الله وسلامه عليه دستوراً ينظم شئون الحياة في « المدينة » ، ويحدد العلاقات بينها وبين ما جاورها من البلاد ، وهذا الدستور دليل على مقدرة عظيمة في التشريع ، وعلى خبرة واسعة بأحوال الناس ، ومعرفة ظروفهم المعيشية ، وقد عرف هذا الدستور باسم « الصحيفة » . .

وقسمت « الصحيفة » سكان « المدينة » إلى ثلاثة أقسام :

١ - المهاجرين

٢ - الأنصار .

٣ - اليهود المقيمين بـ « المدينة » .

وتعتبر هذه « الصحيفة » ذات أهمية كبيرة ، لأنها حددت شكل الدولة الإسلامية ، ولها أهمية - أيضاً - في مفهوم الأحداث التي جرت بعدها .

ونصوص هذه « الصحيفة » متفقة في مبادئها العامة مع القرآن الكريم ، من ناحية توحيد الصفوف ، وجعل المسلمين أمة واحدة لها كياناتها بين الأمم ، ومن ناحية التعاطف والتراحم والتضامن بينهم ، والمحافظة على رابطة الولاء التي تربط بينهم برباط قوي لا ينقسم ، وحقوق الولاء المترتبة عليها ، ومن ناحية القرابة والصحة والجوار ، وتحديد المسؤولية الشخصية ، والبعد عن حزازات الجاهلية وعصبيتها ، ومساواة الجميع أمام القوانين الخاصة بالدولة ،

وردة أي أمر من الأمور إلى الدولة لتتصرف فيه ، وتعاون الرعايا في المحافظة على النظام ، وإقرار الاستقرار ، والضرب بشدة على يد كل من تسول له نفسه تعريض أمن الدولة وسلامتها للخطر .

وكانت المهمة السياسية للرسول صلوات الله وسلامه عليه بعد كل هذا تقتصر على الدفاع عن الدولة ، وتأمين حدودها ، وحمايتها ، وضمان الأمن لها ، ولم تتجاوز تصرفاته هذا الغرض طوال مدة العهد المدني ، وإلى أن لحق بالرفيق الأعلى .

ولتقوية جبهة «المدينة» اعتبر كل من هاجر إليها مستحقاً لرعاية الدولة الجديدة ، فعلى أي إنسان يرغب في أن يكون من بين مواطني «المدينة» بعد إسلامه ، عليه أن يهاجر إليها ، ولقد نص القرآن الكريم على ذلك نصاً صريحاً ، يقول الحق سبحانه جل وعلا : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يهاجِرُوا مَالَهُمْ وَلِنَفْسِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا وَإِنْ اسْتَفْصِرْوَكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ الْأَعْلَى قَوْمٌ يَنْتَهُمُ وَيَتَّقُونَ ﴾ سورة الأنفال : الآية (٧٢) .

وكما حرص المصطفى صلوات الله وسلامه عليه على إيجاد أداة للحكم في «المدينة» ، وتنظيم أمورها الداخلية ، حرص كذلك على ضم القبائل والريف المحيط بها إليها ، عن طريق السرايا التي بعثها .

وحرص - أيضاً - على تخطيط مجالها ، وتقرير حدودها ، وعقد الأحلاف مع القبائل النازلة حولها ، حيث إن «المدينة» لا تستطيع العيش بمفردها ، ولا غنى لها عن الريف الذي يمدّها بكل ما تحتاج إليه .

لهذا بعث رسول الله ﷺ ، بعدة سرايا ، ابتدأت من «المدينة» ، وسارت إلى كل الجهات ، فأمنت الريف ، وتم في نفس الوقت عقد أحلاف مع القبائل المجاورة ، لأن المدن التي تكون مقامة في وسط البادية لا بد لها من أن تكون على

حذر شديد، ولا سبيل لها إلى ذلك إلا عن طريق عقد المعاهدات مع من هم حولها ومهادنتهم، ثم صدّ غاراتهم، واستعمال الشدة معهم إذا اقتضى الأمر ذلك، ليسمعروا بأنّ «المدينة» على جانب كبير من القوة، وأنها قادرة على توجيه الضربات في الوقت المناسب ضدّ أيّ عدوّ، وأنّ في استطاعتها أن تقوم بصدّ أيّ عدوان يقع عليها.

ولقد سالم المصطفى صلوات الله وسلامه عليه اليهود، وعاهدهم على المناصرة والمساعدة، ولولا أنّ اليهود غدروا وخانوا ونقضوا العهود والمواثيق بينهم وبين الرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، لما وقف منهم موقف العداء، ولظلّت «المدينة» يغمرها الوُدّ والصفاء، ولكنهم جوزوا بما جتته أيديهم، واقترفوه بحماقتهم، فأجلّ صلوات الله وسلامه عليه يهود «بني قينقاع»، ويهود «بني النضير»، وقضى على يهود «بني قريظة»، وترك يهود «خير» بعد انتصاره عليهم زراعاً في أرضهم، على أن يكون لهم نصف ما يخرج منها.

وأخيراً أوصى رسول الله ﷺ، قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى بتطهير «الجزيرة العربية» من أيّ دين من الأديان غير الإسلام.

ولقد نفذ عمر بن الخطّاب - رضي الله تعالى عنه - هذه الوصيّة في خلافته، لأن خلافة أبي بكر الصديق - رضي الله تعالى عنه - لم تتسع لمثل هذا العمل، حيث كانت حروب «الرّدة» بعد وفاة الرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام هي شغله الشاغل.

سياسته الخارجية:

وكانت سياسته ﷺ، الخارجية لا تقلّ في براعتها وروعيتها عن سياسته الداخلية، فقد كان لنجاحه في الداخل أثر كبير في نجاحه بالخارج، إذ إنّ خطأ

خطواته الخارجية وهو مطمئن إلى أن القلة المؤمنة معه تعدل في ميزان الأمم أكبر دولة عالمية حيثئذ، بل ونزيد، لأنها تسَلَّحت بإيمانها ووحدتها وعملها الصالح فوق تسَلَّحها بسلاح عصرها وتفوقها، ويكفيه فضلا من المولى تبارك وتعالى عليه وعلى أمته أننا لا نجد نبيا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ترك في أمته مثل ما ترك رسول الله ﷺ.

لقد بدأ المصطفى صلوات الله وسلامه عليه منذ أول يوم وصل فيه إلى «المدينة» يؤسس الدولة الإسلامية الكبرى، التي أذن لها المولى تبارك وتعالى فيها بعد أن تمتد في كل اتجاه، وأن تضم بين ذراعيها، وتبسط سلطانها على أقوى دولتين كانتا تتحكمان في العالم في ذلك الوقت، وهما: دولة «الفرس»، ودولة «الروم»، وتقف ثابتة كالطود أمام أعاصير الإلحاد وبراكين الفتن، وكتب لها المولى تبارك وتعالى الخلود إلى أن تنفطر السموات، وتنكدر النجوم، وتبذل الأرض غير الأرض، والسموات غير السموات، ويرث الحق سبحانه عز وجل الأرض ومن عليها.

بداية الدولة الإسلامية

العمل في بناء المسجد والمسكن

استقر المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وأصحابه المهاجرون بـ «المدينة»، بين ظهرائي الأنصار، وصارت الدعوة الإسلامية في مأمن، وأصبح الدين الإسلامي حقيقة واقعة يشعر بها العرب، وأخذ المسلمون يشعرون بقوتهم وكيانهم كجماعة واحدة، وكوحدة واحدة، فبدءوا يقيمون شعائر دينهم للمرة الأولى علنا ودون أدنى خوف، وبلا أي تصد من أحد كان.

واستسلمت «المدينة» عن بكرة أبيها، وبكل من فيها، من مشركين ويهود إلى

الوضع الجديد الذي جدّ فيها، وبدأت حالة من الاستقرار النسبي تتطلب وتقتضي تنظيمًا دقيقًا لشئون المسلمين، وتستدعي النظر في مختلف الأحوال والملازمات التي تكتنف الدولة الناشئة، وذلك حتى تستقر الأوضاع فيها استقرارًا تامًا، وعلى أساس قوي، ودعائم ثابتة متينة.

وكان من الطبيعي بعد أن التأم شمل هذه الدولة الناشئة وانتظم عقدها، أن يتجه تفكير قائدها ومؤسسها ﷺ، أول ما يتجه إلى بناء دار للعبادة، يجتمع فيها المسلمون لإقامة شعائر دينهم، وأولى هذه الشعائر الصلاة التي تعدّ أكبر ركن من أركان الإسلام.

ومن هنا كان أول عمل قام به المصطفى صلوات الله وسلامه عليه هو بناء المسجد، فبناه في مكان «الجرن»، الذي لم يقبل أن يوهب له ودفع ثمنه، حيث كان يملك هذا «الجرن» فتيان يتيهان، هما: سهل، وسهيل ابنا عمرو.

ثم أخذ رسول الله ﷺ، والمسلمون في البناء، وقد استغرق بناء المسجد أحد عشر شهرًا، وقد استدعى البناء كلّ هذا الوقت لأنّ «الجرن» كانت فيه قبور للمشركين، وحفر، ونخل، فلا بدّ من تسويته، وإزالة القبور، وتسوية الحفر، واقتلاع النخيل، وبني المسجد بـ «الطوب التّي».

وعلى هذا النحو ظلّ البناء الماديّ والتعمير دأب المسلمين منذ أن أقام الرسول ﷺ، البناء، سواء في «قباء» «بنا مسجد» أو بـ «المدينة» بشروعه ببنا مسجده ومساكنه منذ اللحظة الأولى، فإذا أحصينا المدن والقرى التي أقامها المسلمون في مختلف العهود، أو التي عمروها بعد أن كادت تزول وتفتنى، لوجدنا آلاف المدن والقرى، الأمر الذي لم يتوافر في أيّ دول أخرى غير دول الإسلام.

ولا غرابة في ذلك ، فقد كان في مقدّمة التوجيهات والتعليقات التي توجّه إلى القوّات الإسلامية هي : ألاّ يهدموا بناء ، وألاّ يقطعوا شجرا ، وألاّ يقتلوا إلاّ المحاربين ، وألاّ يحرقوا أي شيء ، فضلا عن العناية بالسوائم والبهائم . وكان في مقدّمة العاملين في البناء المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، وقد أشعل ذلك الحماس في قلوب المسلمين ، من مهاجرين وأنصار ، ودأبوا في العمل بهمة ونشاط .

وكان بناء المسجد النبويّ والمساكن بمثابة تدريب عمليّ على العمل المشترك ، وحثّا عليه ، وذلك بتقديم رسول الله ﷺ ، المثل لهم ، لدرجة أن قال قائل منهم : لئن قعدنا والنبي يعمل لئذاك منا العمل المضلل

وكانت مساكن الرسول صلوات الله وسلامه عليه عبارة عن عدّة حجرات حول المسجد ، وكانت بسيطة ، قصيرة البناء ، قريية ، على غرار المسجد ، ولم يكن لأبوابه خلق ، بل كان يقرعها الطارق بالأظفار ، وقد أضيفت الحجرات كلّها إلى المسجد بعد وفاة الرسول ﷺ ، ووفاة أزواجه - رضوان الله تعالى عليهن أجمعين .

المواخاة بين المهاجرين والأنصار :

كان موقف الرسول صلوات الله وسلامه عليه وأصحابه المهاجرين بعد أن تركوا وطنهم ، وخرجوا من ديارهم ، وصودرت أموالهم وممتلكاتهم ، موقفا دقيقا يتطلب الإخلاص والتضامن ، ويقتضي أن يسود بينهم وبين إخوانهم الأنصار التعاون .

وكان الأنصار وهم الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم حباً ملك عليهم كافة مشاعرهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم فقراً.

ولا غرو، فقد شعروا بحاجة إخوانهم المهاجرين، وقدرُوا ظروفهم العصبية، فأووههم، ونصروهم، وضربوا في ذلك آية الإخلاص لهم، والتفاني في خدمتهم، حتى لقد وصَّهم المولى تبارك وتعالى بذلك الوصف الرائع، حيث يقول: «وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ» - سورة الحشر الآية (٩).

وكانت سياسة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه في هذه الظروف القاسية سياسة القائد المحنَّك الرشيد، فقد عمل على تنظيم صفوف المسلمين، وتأكيد وحدتهم، فربط بينهم يرباط قويّ متين، وذلك أنه عقد تلك الأخوة النادرة المثال بين المهاجرين والأنصار بعد بناء المسجد^(١)، وجعل لها من الحقوق والواجبات ما لأخوة النسب.

ولقد تأخى المسلمون في الله عز وجل أخوين أخوين، وأخذ المصطفى صلوات الله وسلامه عليه بيد علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - فقال: «هذا أخي»، فكانا أخوين، وكان حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، أخوين، وإليه أوصى حمزة يوم «أحد» حين حضر القتال، إن حدث به حادث الموت.

وأخى المصطفى صلوات الله وسلامه عليه بين جعفر بن أبي طالب، الذي لقَّب فيما بعد - «الطيار»، ومعاذ بن جبل، فكانا أخوين، وكان جعفر هذا يومئذ غائماً بأرض «الحشة»، وكان أبو بكر الصديق وحارثة بن زيد الخزرجي أخوين، وعمر بن الخطاب وعثمان بن مالك أخوين، وقد عقدت هذه المواخاة

في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلاً من المهاجرين والأنصار، وهذه الأخوة كانت من حصائص الرسول ﷺ، ولم تكن لنبيّ قبله^(٢٧).

واستشكل بأنّ المؤاخاة إنما شرعت لتؤلف قلوب بعضهم على بعض، فلا معنى لمؤاخاة الرسول ﷺ، لأحد منهم، ولا لمهاجريّ لمهاجريّ آخر، ولهذا فإنّ ابن حزم لم يذكر مؤاخاة بين مهاجريّ ومهاجريّ.

وصرح «ابن القيم» بأنّ المؤاخاة كانت بين تسعين، نصفهم من المهاجرين، ونصفهم من الأنصار، وقال: «إنّ المهاجرين كانوا مستغنيين بأخوة الإسلام، وأخوة الدار، وقراءة النسب، عن عقد المؤاخاة، بحلاف المهاجرين مع الأنصار، ولو آخى النبي ﷺ، بين المهاجرين، لكان أحقّ الناس بأخوته أحبّ الخلق إليه، رفيقه في الهجرة، وأنيسه في الغار، وأفضل الصحابة، وأكرمهم عليه، أبو بكر الصديق، وقد قال: «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام أفضل»^(٢٨).

اللهمّ إلّا أن يقال: إنّ الرسول صلوات الله وسلامه عليه لم يجعل مصلحة على ابن أبي طالب إلى غيره، فلقد كان تحت وصاية الرسول عليه الصلاة والسلام، ويتولّى الإنفاق عليه، منذ صغره، وفي حياة أبيه، وكذلك حمزة من عبد المطلب قد التزم بمصالح مولاة زيد ابن حارثة، فأخاه بهذا الاعتبار.

وقد يقال - أيضاً - في مؤاخاة جعفر بن أبي طالب ومعاد بن جبل الحزرجي، ما فائدتها؟ . وقد كان جعفر غائباً «الحبشة»، ولم يحضر إلى «المدينة» إلّا في فتح «خير»، في أوّل سنة سبع من الهجرة، إلّا أن يقال: إنّ الرسول صلوات الله وسلامه عليه أرصد لأخوته حين يقدم.

ولقد كان يترتب على هذه الأخوة أن يتوارث الأخوان كما يتوارث الأخوان من

النسب، وظل الأمر على هذا الشكل إلى أن نزل قول المولى تبارك وتعالى: «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» - سورة الأنفال: الآية (٧٥).

فتفت هذه الآية الكريمة سنة التورث بالمواحاة، بيد أن نفي التورث لا ينفي عاطفة الإحاء نفسها، لأن هذه العاطفة قويت بمرافقة الجهاد في سبيل المولى تبارك وتعالى، وفي سبيل إعلاء ديه.

وقد أظهر الأنصار من الكرم والتسامح مع إخوانهم المهاجرين ما خفف عنهم آلام الغربة، وعوضهم عن فراق الأهل والعشيرة.

«دستور المدينة»

لقد أخذ المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ينشئ دولة إسلامية تجمع بين الجميع، بصرف النظر عن الأجاس والديسات، وبذلك بدأت الدعوة الإسلامية تدخل في دورها السياسي، وبدأ المظهر السياسي يسدو في شخصية المصطفى صلوات الله وسلامه عليه مع المظهر الديني.

ولقد كانت «المدينة» عند مقدم الرسول ﷺ، حليطا من عقائد مختلفة، ومن عناصر لا يربطها نظام ولا وحدة ولا وفاق، فعمل صلوات الله وسلامه عليه على أن يظّمها، ويوحد بينها، ويجمعها تحت جامعة الإنسانية العاقّة، ويقيم التعاون بينها على أساس من الإخاء العام الذي يربط بين الإنسان وأخيه الإنسان، فكتب كتابا بين المهاجرين والأنصار، وهو ما يسمّى بـ «الوثيقة»، أو «الصحيفة»، يتر فيه ما يجب على المؤمنين والمسلمين، بعضهم لبعض، من: التعاون، والتكافل والتناصر، والأخذ على يد الباغى، ووادع فيه اليهود

وعاهدهم ، فشرط لهم أن يكونوا آمنين على دمائهم ، وأموالهم ، ومواليهم ، وأن يكونوا أحرارا في عقائدهم ، فمن تسع المسلمين منهم فله ما للمسلمين من النصر والأسوة ، واشترط عليهم أن يكونوا مع المسلمين يدا واحدة على من دهم «يثرب» ، أو حارب أهلها ، وأن ينفقوا مع المسلمين ما داموا محاربين ، على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم .

كما اشترط على المشركين من العرب ألا يحبر مشرك نفسا أو مالا لـ «قريش» ، ولا يحول دونه على المؤمن ، وألا تجار «قريش» ولا من نصرها ، وأن بينهم النصر على من دهم «يثرب» ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم .

وتضمن الكتاب - أيضا - حرية العقيدة ، وحرية الرأي ، وحرية الهجرة والإقامة ، وتضمن - أيضا - حرمة النفس ، وحرمة المال ، وحرمة الجوار ، وحرمة الوطن ، وكفل بصرة المظلوم ، ومقاومة المعتدي ، وإعانة من أثقله الدين ، وشدد في تحريم البغي والفساد ، وإيواء الساغين والمفسدين ، وفتح باب الصلح لمن أراد من المسلمين وغير المسلمين ، ودعا الجميع إلى التعاون على البر دون الإثم ، وجعل الاحتكام فيما يكون بين أهل هذا الكتاب من خلاف إلى الله عز وجل ، وإلى رسوله ﷺ

وكان الهدف الذي يرمي إليه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه أن يعيش الجميع في وطنهم آمنين على أنفسهم ، وأموالهم ، وأعراضهم ، وأهليهم ، وأن يكونوا أحرارا في عقائدهم وآرائهم ، وأن يتعاونوا على البر والتقوى ، لا على الإثم والعدوان .

وهكذا أخذ المصطفى صلوات الله وسلامه عليه يضع قواعد المجتمع المثالي الصالح ، الذي يسوده الوئام والحب ، ويعد له الفرد المثالي الصالح ، الذي يقيم صلته بالمولى تبارك وتعالى على الإخلاص في عبادته ، والعمل على مرضاته ،

ويقيم صلته بالناس على التعاون الصادق في سبيل الخير، ويعاملهم جميعاً على أنهم إخوة، فمن وافقه في عقيدة الإسلام فهو أخوه في الله عزّ وجلّ، ومن خالفه فيها فهو أخوه في الإنسانية:

نصوص الصحيفة :

ونصوص هذه «الصحيفة» هي على النحو التالي:

- ١ هذا كتاب من محمد النبي، بين المؤمنين والمسلمين من قریش وأهل یسرب ومن تبعهم، فلمحق بهم، وجاهد معهم.
- ٢ أنهم أمة واحدة من دون الناس.
- ٣ المهاجرون من قریش علی ربعتهم^(١)، يتماقلون بينهم وهو يعدون جانبهم^(٢)، بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.
- ٤ وبنو عوف علی ربعتهم، يتماقلون، معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي جانبها، بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.
- ٥ وبنو الحارث - من الخزرج - علی ربعتهم، يتماقلون، معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي جانبها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.
- ٦ وبنو ساعدة علی ربعتهم، يتماقلون، معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي جانبها، بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.
- ٧ وبنو أجم علی ربعتهم، يتماقلون، معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي جانبها، بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.
- ٨ وبنو النجار علی ربعتهم، يتماقلون، معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي جانبها، بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.
- ٩ وبنو عمرو بن صوف علی ربعتهم، يتماقلون، معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي جانبها، بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.

- ١٠ وسو النّيت على ريعتهم، يتعاقلون، معاقلمهم الأولى، وكلّ طائفة تغدي عانيها، بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.
- ١١ ويو الأوس على ريعتهم، يتعاقلون، معاقلمهم الأولى، وكلّ طائفة تغدي عانيها، بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.
- ١٢ وأنّ المؤمنين لا يتركون مفرحاً^(١١) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل، وأن لا يخالف مؤمن مولى مؤمن دونه.
- ١٣ وأنّ المؤمنين المتقين - أيديهم - على كلّ من بغي منهم، أو اتقى دسيمة ظلم^(١٢)، أو ابغى عطية على سبيل الظلم، أو ثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وأنّ أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم
- ١٤ ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن
- ١٥ وأنّ ثمة الله واحدة يجير عليهم أديانهم، وأنّ المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس.
- ١٦ وأنه من تبغنا من يهود فإنّ له النصر والأسوة^(١٣)، غير مظلومين، ولا متناصر عليهم.
- ١٧ وأنّ سلم المؤمنين واحدة لا يسلم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على عدل وسواء بينهم
- ١٨ وأنّ كلّ غزاة غزت معنا يعقب بعضها بعضاً^(١٤)
- ١٩ وأنّ المؤمنين يسيء بعضهم على بعض^(١٥)، بما مال دماءهم في سبيل الله.
- ٢٠ وأنّ المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وآنه لا يجير مشرك مالا لقريش، ولا نقباء، ولا دونه على مؤمن
- ٢١ وآنه من اعتصم^(١٦) مؤمناً قتلاً عن بينة، فإنّه يقاد به^(١٧)، إلا أن يرضى وليّ المقتول، وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم قيام عليه
- ٢٢ وآنه لا يحل للمؤمن أقرب بها في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً^(١٨)، أو يورثه، وآنه من نصره أو آواه فإنّ عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

- ٢٣ وأنكم معها اختلفتم فيه من شيء فإن مرّته إلى الله ، وإلى محمد رسول الله ^(١٤)
- ٢٤ وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .
- ٢٥ وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين . لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم أو أثم ، فإنه لا يوتغ إلا نفسه ^(١٥) ، وأهل بيته
- ٢٦ وأن لليهود بني النخار مثل ما لليهود بني عوف .
- ٢٧ وأن لليهود بني الحارث مثل ما لليهود بني عوف
- ٢٨ وأن لليهود بني ساعدة مثل ما لليهود بني عوف .
- ٢٩ وأن لليهود بني جشم مثل ما لليهود بني عوف
- ٣٠ وأن لليهود بني الأوس مثل ما لليهود بني عوف
- ٣١ وأن لليهود بني ثعلبة مثل ما لليهود بني عوف ، إلا من ظلم أو أثم ، فإنه لا يوتغ إلا نفسه .
- ٣٢ وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .
- ٣٣ وأن لبني الشطيبة مثل ما لليهود بني عوف ^(١٦) ، وأن البرّ دون الإثم
- ٣٤ وأن موالي ثعلبة كأنفسهم .
- ٣٥ وأن بطانة يهود كأنفسهم .
- ٣٦ وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ، وأنه لا يتحجر على نار جرح ^(١٧) ، وأنه من فئت فبنته ، وأهل بيته ، إلا من ظلم . وأن الله على أمرٍ هذا
- ٣٧ وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم . وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم . وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه ، وأن النصر للمظلوم
- ٣٨ وأن يشرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .
- ٣٩ وأن الحار كالفس ، غير مضار ولا آثم .
- ٤٠ وأنه لا تخار حرمة إلا بإذن أهلها .
- ٤١ وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرّته

إلى الله، وإلى محمد رسول الله ﷺ، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره

٤٢ وأنه لا تحمار قریش ولا من نصرها.

٤٣ وأن يبهم النصر على من دهم يشرب

٤٤ وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإثم يصالحونه ويلبسونه، وإثم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

٤٥ وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، وأن البر دون الإثم، لا يكس كاسب إلا على نفسه، وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.

٤٦ وأنه هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من حرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو آثم، وأن الله جبار لم ير وأتقى^(١٨).

هذه هي الوثيقة السياسية التي وضعها المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، والتي تقرّر حرية العقيدة، وحرية الرأي، وحرمة «المدينة»، وحرمة الحياة، وحرمة المال، وتحريم الجريمة^(١٩).

وهي نعد بحق فتحاً في الحياة السياسية، والحياة المدنية، في العالم الموجود في ذلك الوقت، بل وفي كل الأوقات.

وإذا كان ذكر يهود «بي قينقاع»، ويهود «سي النصير»، ويهود «بني قريظة»، لم يرد في هذه «الصحيفة»، فقد ثبت أن المصطفى صلوات الله وسلامه عليه قد عقد مع كل فريق منهم معاهدة على حدة، ولقد وفي المسلمون بما جاء في هذه «الصحيفة» وما التزموا به، ولكن اليهود نقضوا العهد - على ما لوف عادتهم -، فهم أساس لا أمان لهم، فكان عملهم هذا مصدر تعاسة وشقاء لهم.

ولا شك في أن تلك المعاهدات التي عقدها المصطفى صلوات الله وسلامه عليه كانت متفقة في نصوصها الأساسية، لأن معاملته ﷺ، لجميع طوائف اليهود كانت واحدة.

وكان ظاهر هذه «الصحيفة» التي كتبت للبطون الصغيرة أنها كانت تخصهم، ولكن أسسها ونصوصها العامة كانت تشمل كل من تحالف مع اليهود، فلما انتضحت هذه النصوص من هذه «الصحيفة» سارع يهود «بني قينقاع»، ويهود «بني النضير»، ويهود «بني قريظة» إلى عقد معاهدات شبيهة بها مع رسول الله ﷺ، فهي معاهدات واحدة بالنسبة لمن عقدت لهم، وإن اختلفت باختلاف من عقدت لهم.

وفي هذه الوثيقة التي قامت على أساسها الدولة الإسلامية الأولى، يلاحظ مايلي.

أولاً: اعتبار المؤمنين جميعاً من أيّ جنس ولون أمة واحدة، ذمتهم واحدة، وسلمهم واحد، وأتهم متساوون في الحقوق والواجبات.

ثانياً: اعتبار المواطنة أساس التوزيع، ومساوئ الحق والواجب، بدون نظر إلى العقيدة أو المذهب، أو أيّ مفهوم آخر.

ثالثاً: اعتبار مصلحة الجماعة فوق مصلحة الفرد، وتقديم الصالح العام على المصالح الشخصية والفردية

رابعاً: كفالة الحريات العامة في العقائد والشرائع، والمذاهب، وسائر الآراء، وممارسة الشعائر الدينية لكل الطوائف في حرية تامة.

خامساً: تأكيد الاستمساك بالعهود والمواثيق، وفرص حزماء رادعة للمهاجرين والتآكثين، وذوي الخيانة والغدر، مهما بلغت مراكزهم الاجتماعية.

سادساً: فرص التضامن التام إبان نشوب الحرب مع الأعداء على جميع المواطنين، مهما اختلفت الشرائع والديانات والآراء، واعتبار الذين يتصلون بأعداء الدولة من الخونة، وأعداء للشعب، وإنزال أقصى العقوبات بهم وبأمتهم.

سابعاً : اعتبار الدين يحدثون أحداثاً صدّ الدولة، والمجتمع الإسلامي، أو صدّ سيادة الدولة ونظامها الأساسي، من المنحرفين والخائنين لأمانة الحفاظ على سلامة دولتهم وهيتها في المعترك العالمي.

ثامناً : اعتبار الدين يتسّرون على ذوي الجرائم الكبيرة كالخيانة، والاتصال المريب، بأعداء الدولة، من المجرمين الذين تجب معاقبتهم، وأخذهم بذنوبهم.

تاسعاً : إعلان الحرب ضدّ «قريش» ومن يناصرها، ويقف إلى جانبها، وإهدار دمائها وأموالها.

عاشراً : إلغاء الزعامة القبلية، وجميع عاداتها وتقاليدها، التي يمارسها رؤساء القبائل وكهنتها، وعرافوها، وإحلال الأمة محلّ القبيلة، والمبادئ الجديدة التي نصّت عليها «الصحيفة» محلّ العادات، والأوضاع القبلية.

وبناء على هذا فقد قرّرت «الصحيفة» استبدال التشريعات الجاهلية، التي كانت سائدة بين القبائل والعشائر بتشريعات جديدة، مصدرها كتاب المولى عزّ وجلّ، وسنة رسوله ﷺ.

حادي عشر إقامة المجتمع الجديد على دعائم الإحاء، والمساواة، والتكافؤ، والتكافل الاجتماعي، واعتبار المسؤولية جماعية ومباشرة، بالسبب إلى كلّ فرد في الدولة، سواء في السلم أو في الحرب.

إنّ هذه «الصحيفة» قد أحدثت انقلاباً جذرياً في كيان المجتمع العربي، والعالميّ، بما شرّعت من مبادئ وتنظيمات لم تكن معروفة لدى الأمم الأخرى في العالم القديم.

نقرات في بعض نصوص الصحيفة:

يجدر بنا أن نقف عند بعض نصوص هذه الصحيفة وقمة تأمل وتمحّص،

لنحلل بدقة ما فيها من النقاط الهامة ، رغبة في إيضاح سياسة الدولة الإسلامية في بداية نشأتها ، فهذه الصحيفة قد تضمنت الكثير من المبادئ السامية ، والأسس التي يجب أن تقوم عليها العلاقات بين الأمم ، ومن أهم المبادئ التي تضمنتها الصحيفة ما يأتي .

تكوين الأمة

لقد ورد في الصحيفة : « أن المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس » ، فلم يجعل المصطفى صلوات الله وسلامه عليه الانتماء إلى هذه الأمة مقصوراً على أوائل المسلمين في عهده ، بل جعله عامّاً يشمل كل فرد يدخل في هذا الدين إلى يوم القيامة ، بشرط أن يكون من المجاهدين في سبيل المولى تبارك وتعالى ، لا من الخاملين المتقاعدین ، الذين يكتفون بإقامة الشعائر الدينية ، دون أن يكون لهم دور إيجابي في حياتهم ، فمن أراد أن ينال شرف عضوية الأمة فعليه بالجهاد .

وإننا لو تصفحنا التاريخ لوجدناه شاهداً بوجوب هذا الشرط الذي اشترطه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه فيمن يرغب في الانضمام إلى الجماعة الإسلامية ، لأن كل الدعوات لم تقم لها قائمة بغير الجهاد

ولم يشترط رسول الله ﷺ ، صفات معينة فيمن يريد أن يتبع المهاجرين والأنصار ، ويلحق بهم ويجاهد معهم ، ليكون ذلك حقاً لكل إنسان ، مهما كان دينه أو وطنه أو جنسه ، وهو يقصد بقوله : « أمة واحدة من دون الناس » استقلال هذه الأمة وقيامها بذاتها ، واعتمادها على نفسها دون غيرها .

وقد اعترفت الصحيفة مع ذلك بالمجموعات القبلية القائمة ، وأشارت إلى المهاجرين بصفتهم وحدة ، أي : أمة واحدة من دون الناس ، كما أشارت إلى قبائل من « الأوس » ، ومن « الخزرج » ، بيد أنها مع اعترافها هذا لم تترك لهذه

الوحدات ما يشعرها بالتكثّل إلاّ عند دفع الدّية أو الفدية، وما إلى غير ذلك ممّا لا يتعارض بأيّ شكل من الأشكال مع وحدة الجماعة الإسلامية.

وحدة الأمة :

ورد في «الصحيفة» : «وأنّ سلم المؤمنين واحدة : لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلاّ على عدل وسواء بينهم» .

ولعلّ في هذا إشارة من المصطفى صلوات الله وسلامه عليه إلى أنّ المسلمين متحدون في كلّ أمورهم، فلا يليق أن تكون هناك وحدة في السلم، ويكون هناك انقسام في الحرب أو في غيرها .

وجاء في «الصحيفة» - أيضا - قوله ﷺ : «أنّ أيديهم عليهم جميعا» ، فالمقصود في هذه العبارة هم من يسعدون بالإفساد بين المؤمنين .

وجاء في «الصحيفة» أيضا - : «وأنّ المؤمنين عليه كافة» ، والمراد بهذه العبارة هو من يقتل مؤمنا بغير حقّ ، فرسول الله ﷺ ، حين يعبر بكلمتي «جميع» ، و«كافة» ، في حديثه عن قيام المؤمنين بالقصاص من الذي يقتل أحدهم ، أو يسعى بينهم بالفساد ، فإنّه بهذا التعبير يقرّر وحدة المسلمين وحدة تامّة ، وهذا هو أساس فورها وانتصارها في مختلف الحروب التي خاضتها .

هوية العقيدة :

جاء في «الصحيفة» : «لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم» ، وفي هذا خبر برهان وأكبر دليل على أنّ الإسلام بريء مما ادّعاء أعداؤه من أنّه قد انتشر بقوة السلاح ، ولو كان هذا الادّعاء صحيحا لما وجدنا الإسلام يقرّ المعلّوين من أهل الأديان الأخرى على دياناتهم ، مقابل دفع الجزية ، على أنّه قد أعمى منها الفقير المعدم ، والضعيف العاجز عن العمل ، والشيخ الفاني ، والمرأة ، والصبي ، والرقيق ، لثلا يدّعي أحد أنّ العاجزين عن دفع الجزية ليس أمامهم سوى

الحرب إن كانوا أقوياء ، أو الإسلام قهرا إن كانوا ضعفاء .

ولم يرع المصطفى صلوات الله وسلامه عليه أحدا على الدخول الإسلام ، أو اعتناقه ، وأوضح دليل على ما نقول أنه ترك لليهود الحرية في دينهم ، كما ورد على ذلك النص في « الصحيفة » ، ولقد قال المولى تبارك وتعالى ، مشيرا إلى مبدأ حرية العقيدة : « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » - سورة البقرة : الآية (٢٥٦) .

وقال سبحانه وهو أصدق القائلين : « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ : ١ : وَلَا أَنْتُمْ عِبُدُونَ مَا أَعْبُدُ : ٢ : وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ : ٣ : وَلَا أَنْتُمْ عِبُدُونَ مَا أَعْبُدُ : ٤ : لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ : ٥ » سورة الكافرون : الآيات (١ / ٦) .

وهكذا يأمر المولى تبارك وتعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه بالدعوة إلى الاسلام ، عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة ، وساندار الكافرين بالعذاب الأليم إن هم أصرتوا على كفرهم ، بدون أن يرغمهم على الدخول في الإسلام أو اعتناقه ، والبأس بعد ذلك يخبرون بين الإيهام والعمل الصالح ، وهما طريقا العود والعلاج ، وبين الاستمرار على الكفر والضلال ، وهما المؤديان إلى الخسران والهلاك .

يقول المولى سبحانه جل وعلا : « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِشْرُكَ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا » سورة الكهف : الآية (٢٩) .

وبذلك يكون الإسلام قد قرر مبدأ حرية العقيدة ، ونادى به منذ بدأت دعوته ، سيما بصفتها العالم اليوم لمن يظنهم سناقين إلى هذا المبدأ وقد عمى عن ذلك أعداء الإسلام ، ونسوا أو تناسوا سياحته ، وأنه هو

فإن البناء الصالح الشامخ الذي أقامه وأرسى أسسه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه في «المدينة»، لم يسبق له نظير أو مثيل في المجتمعات أو الدول التي سبقت أو عاصرت الدولة الإسلامية، كما أن أسس هذا البناء ستظل على الدوام في كل وقت وفي كل عصر جديدة ومثالية، حتى في عصرنا هذا الذي نعيش فيه، والذي تعددت فيه المشاكل وتنوعت وتشعبت.

وستظل أسس المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية التي أقامها رسول الله ﷺ، في «المدينة»، تصنع الأمة الإسلامية في الموضع الذي اختاره المولى تبارك وتعالى لها، في قوله جل شأنه: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» - سورة البقرة: الآية (١٤٣).

والأمة الوسط تظل كذلك في كل عصر من العصور، وفي كل زمن من الأزمان، تنمو نموا مطردا، كما أن شهادتها على الناس تدعوها بأن تكون على الدوام محيطة بكل ما في الناس، وبكل ما لدى الناس، وفي أي وقت من الأوقات، حتى نستطيع أن نقوم بيا ألقى على عاتقها من مهام على الوجه الأكمل.

وشهادة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه بما جاء في القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، يجعلها على الدوام تقيم ميزانا وضميرا حيا، ورقابة ذاتية، ومقياسا صحيحا على جميع تصرفاتها، وعلى كل حالاتها، قريبا أو بعدا من

وهم يد واحدة على من سواهم ، وهم جميعا على من بغى منهم ، ولا يقع واجب الثأر على عاتق أهل المقتول بحكم رابطة القرابة ، وإنما يقع على كاهل المؤمن لياخذ بثأر المؤمن ، وبذلك أصبحت الحرب حربا ليس إلا ، وأصبح السلام مع قوم أجنب أمرا يشمل المؤمنين جميعا ، كما هو الشأن في الحروب .

لقد أوضحت «الصحيفة» التخطيط الشامل لكل الأمور ، وإذا كانت هناك بعض الثغرات التي تتمثل في حق المجني عليه ، في الأخذ بالثأر أو العفو ، وفي حق الإجارة التي يجب أن تكون حقاً من حقوق سيادة الدولة ورئيسها ، إلا أن نظام الأمة الإسلامية أخذ يكتمل بعد ذلك بالتدريج .

إن الهدف الذي كان يرمي إليه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه هو أن يعيش الجميع في وطنهم آمين على أنفسهم ، وأموالهم ، وأعراضهم ، وأهلهم ، وأن يكونوا أحراراً في عقائدهم ، وآرائهم ، وأن يتعاونوا على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان ، ولقد كان فيما وضع الإسلام من مبادئ وأصول ، كناية وضمان لدوام المحبة والتراحم بين الناس .

وهكذا أخذ رسول الله ﷺ ، يضع قواعد المجتمع المثالي الصالح ، الذي يقيم علاقته وصلته بالمولى تبارك وتعالى على الصدق والإخلاص في عبادته ، ويتعامل أفراداً على أنهم أخوة ، فمن وافق الفرد في عقيدة الإسلام فهو أخوه في الله عز وجل ، ومن خالفه فيها فهو أخوه في الإنسانية^(٢١) .

لقد كان المؤمنون وعلى رأسهم الرسول ﷺ ، هم الروح التي تحيا بها الأمة الإسلامية ، وعصرها الذي به تنهض وتصدر عنه الحركة ، وكلما كانت الدعوة الإسلامية آخذة في طريق التقدم والانتشار ، كانت الأمة الإسلامية آخذة في طريق التماسك والبناء^(٢٢) .

وقد نصّت «الصحيفة» على بقاء القبائل كما هي، ودحوها في الأمة الإسلامية على ما هي عليه، فظلّ تشكيل القبيلة الاجتماعي كما هو.

ومع أنّ نظام العصبية والقبلية الذي كان سائدا في العصر الجاهلي لم يعد له أدنى اعتبار، فإنّ النظام القبلي باعتباره عاملا من عوامل قوة القبيلة في داخلها، وطريقته في معاملة العرءاء ظهرت فائدته، فلم تستطع سذه أو الاستغناء عنه، فظلّ رؤساء القبائل كما هم، ولم يقم غيرهم مقامهم.

أما فيما يختص بعلاقة الأمة بالقبائل، وتحديد سلطة كلّ منها، وما لكلّ منها من حقوق وواجبات، فقد ظلّت القبائل ملزمة بالتفقات التي لا تأخذ طامعا خاصا، وخاصّة فيما يتعلق بفداء الأسرى ودفع الديات، لأنّ نظام خزامة الدولة لم يكن قد عرف أو وجد بعد، وبقي للقبيلة حق الاحتفاظ بنظام السلاء، فلا يصحّ لأيّ إنسان أن يتحالف مع مولى غير مولاه، وكذلك ظلّ حقّ الإجارة من غير قيد، فيجوز لأيّ شخص أن يبيع الغريب، وهو بإجارته ملزم للجماعة كلّها، ولكنّ إجارة «قريش» ومن نصرها محرمة على كلّ من اشترك في هذه «الصحيفة».

وبمقتضى ذلك أصبح لزاما على القبائل أن تتناسى مسألة الأخذ بالتأثير فيما بينها، لأنّ أول هدف للأمة الإسلامية هو منع شوب حرب أهلية داخلية، فإذا قام نزاع وح أن يعرض على القضاء، وكان المصطفى صلوات الله وسلامه عليه قد نصّ في «الصحيفة» على أن يتولّى هو بنفسه القضاء بين الناس دون سواه.

والهدف الثاني الذي بيّنته «الصحيفة» هو تضام القبائل لصدّ أيّ عدوان يتهذهم من الخارج، والمؤمنون ملزمون بالتناصر والتآزر والتعاقل فيما بينهم،

حواجز تمنعها من المشاركة في حياة العالم الإسلامي، وذلك لأن الحدود القبلية أصبحت غير معترف بها رسميًا في الدولة.

وهذه الأمة تجمع بين رعاياها رابطة الاتحاد النابع من الإيمان، والمؤمنون هم أول من يتمثل معنى الاتحاد، وهم أول من يلتزم بالوفاء له، وهم كذلك أول من يتمتع بالحقوق التي يمنحها لهم.

والأمة الإسلامية لها منطقة من الأرض، هي منطقة «المدينة»، وكل ما في هذه المنطقة يجب أن يكون مقدسًا ودار سلام، لا يحدث فيها اعتداء من أحد على أحد، وعلى هذا الأساس فالأمة الإسلامية لا تتألف من المسلمين وحدهم، بل هي تتألف من كل من يخالف المسلمين ويجاهد معهم، وبذلك يدخل في الأمة الإسلامية من لم يعتنق الإسلام، كبعض الأنصار الذين لم يسلموا، وظلوا على ما هم عليه من ديانة، وأدخروا في الدولة الإسلامية، ولم يستعدوا عنها.

كما شملت الأمة الإسلامية - أيضًا - اليهود المقيمين في «المدينة»، بيد أن اندماجهم في الأمة الإسلامية لم يكن كاندماج المهاجرين والأنصار، ولذلك لم يكونوا مكلفين بنفس الواجبات، ولا يتمتعون بنفس الحقوق، وقد ألحق بعضهم بالدولة بنصر صريح في «الصحيفة»، وهؤلاء هم الذين كانت بينهم وبين الأنصار روابط تحالف، ووضع نند خاص لكل من يتبع الدولة منهم بعد ذلك.

وعلى هذا فلم يكن الجميع يتمتعون للدولة بدرجة واحدة، بل أصبح هناك فرق وتمايز بين أصحاب الحق الكامل، وبين غيرهم ممن يتبعونهم أو ينزلون.

وعلى الرغم من انضمام كل الطوائف تحت لواء الأمة الإسلامية فإنها لم تكن أمة أفراد، بل أمة جماعات، فانتهاه الفرد إلى الأمة إنما يكون عن طريق القبيلة أو العشيرة.

وأغلب الظن أن المصطفى صلوات الله وسلامه عليه لو كان يملك زمام الأمر في «جزيرة العرب» كلّها وقت كتابة «الصحيفة» لجعلها كلّها حراماً، وما جعل الحرمه مقصورة على «المدينة» وحدها.

عدم جوار قريش

لقد جاء في «الصحيفة»: «وأنه لا تحار قريش ولا من نصرها»، وقد كان من مظاهر المروءة والشرف عند العرب في الجاهلية عادة الحوار.

وقد رأى المصطفى صلوات الله وسلامه عليه بشاقب فكره، وعظيم حكمته، أن هذه العادة لو بقيت لكادت مصدر خسران وبلاء للإسلام، فلو اشتد أحد من «قريش» في عداوته للمسلمين واطّظهاده هم، ثم طلبه المسلمون بعد ذلك ليبال جرائه، فاستجار برجل من أهل «المدينة»، لم يتمكن المسلمون من أن يتخلّصوا منه ومن عداوته هم، فلا غرامة إذا في أمر الرسول ﷺ، بالألّا تجار «قريش» ولا من ينصرها.

ولم يعيّر رسول الله ﷺ، صفة المجير في أمره بعدم إحارة «قريش»، ليشمل المشرك، واليهودي، وجوار المسلم

تنظيم الحياة العامة في الدولة الإسلامية

لقد نصّت «الصحيفة» على الأسس التي نظّم الحياة العامة في الدولة الإسلامية، وبيّنت من هذه «الصحيفة» إلى أيّ حدّ تعبّرت الأوضاع والأحوال القديمة، التي كانت سائدة قبل ظهور الإسلام

وأول هذه الأسس أن «الصحيفة» جعلت للمجاعة الإسلامية كيّانا، فقد نصّت على أن كلّ المسلمين من «قريش»، و«المدينة»، ومن انصم إليهم، وقاتل معهم في سبيل تعزيز الدولة الإسلامية أمانة واحدة من جميع الناس، وهذا أصبح الإسلام ملكاً لمن دخل فيه، واعتنقه، وبناء على هذا الأساس دخل في الإسلام شعوب كثيرة، دون أن يصح المصطفى صلوات الله وسلامه عليه أمامها آية

على حفظ حياته وصيانتها، له وإخوانه على قدر ما يستطيع، ولا يحق لأي إنسان أن يعتدي على غيره، لأنه بذلك يكون قد ارتكب حرماً، واغتصب حقاً من أهم حقوق إخوانه.

ومن قتل نفساً بغير حق فقد ماء بغضب من المولى سبحانه عز وجل. الذي تعزّد بصمة الإحياء والإماتة، ومن المجتمع الذي ينكر عليه التعدي على أهم حقوق غيره.

إن حياة الناس سواء في مشارق الأرض ومغاربها، والاعتداء على بعض الناس يعتبر اعتداء عليهم جميعاً، والإسلام يدعو جميع الناس لعمل كل خير، ودفع كل شر، وبالتالي يدعوهم لجمع الصفوف، وتوحيد الكلمة.

وعلى الدولة بصمتها ممثلة للمجتمع أن تمنع اعتداء الإنسان على حياة أخيه الإنسان، وتطبق في سبيل ذلك الأحكام الشرعية الرادعة، وتبحث عن أسباب الجريمة قبل وقوعها، لتلافي حدوث هذا الأمر.

هجرة المدينة:

ورد في «الصحيفة»: «وأن يشرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة»، وإتنا لنجد في هذا النص تأكيداً ناحيتين:

الأولى: وجوب مسألة اليهود للمسلمين وعدم الكيد لهم.

الثانية: تأمين اليهود على أنفسهم وممتلكاتهم.

ولعل الحكمة في جعل بعض الأماكن حرماً «مكة»، و«المدينة»، هي عين الحكمة في جعل بعض الأشهر حرماً، لا يحل فيها القتال، فالملقصد بهذا أن يعتاد الناس حياة الأمن التي لا يعكّر صفوها نزاع أو جريمة.

ولحكمة «المدينة» قال أبو هريرة - رضي الله تعالى عنه - «لو رأيت الضياء بالمدينة ترتع ما ذعرتما».

أن يكلمه غير أسامة بن زيد، وكانت شفاعته مقبولة عند رسول الله ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «أنشف في حد من حدود الله»، ثم قام فاحتطب، ثم قال: «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» (١٠).

عن الحياة:

جاء في «الصحيفة»: «وأنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بيته فإنه قود به، إلا أن يرضى ولي المقتول، وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم قيام عليه» واعتباط المؤمن قتله بغير حق، وجزاؤه القتل، إلا إذا قبل ولي المقتول الذية، ونحن نجد في القرآن الكريم ما يؤكد هذا الحق الإنساني، فقد جعل المولى تبارك وتعالى قتل النفس ظلماً كقتل الناس جميعاً، وذلك لينتصر من جريمة القتل، ويقرر حق الحياة، فقد قال المولى تبارك وتعالى في هذا الشأن: «مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا» - سورة المائدة: الآية (٣٢).

إن المولى سبحانه عز وجل لم يخلق الحياة عبثاً، بل خلقها لحكمة جليلة، وعناية عظيمة، تتمثل في اختيار كل إنسان لمعرفة مدى قيامه بواجباته، أو تقصيره فيها طيلة فترة عمره، يقول الحق سبحانه جل وعلا: «تَبَارَكَ الَّذِي يَدْرِؤُ السَّاعَةَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَسْأَلَكُمْ بِكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا) سورة الملك: الآيتان (١، ٢).

وقد جعل الله سبحانه جل شأنه الحياة حقاً من الحقوق، وواجباً من الواجبات في نفس الوقت، ولذلك فمن حق كل إنسان ومن واجبه أن يعمل

اشتراك اليهود في النفقة مع المسلمين وقت الحرب:

جاء في «الصحيفة»: «وأن اليهود ينفقون مع المسلمين ما داموا محاربين»، فإذا كان في الجيش معسكر لليهود، ومعسكر للمسلمين، التزم كل معسكر بنفقته، فيطعم الخنود، ويشتري السلاح من ماله الخاص.

وقد نفى المصطفى صلوات الله وسلامه عليه بهذا النص أن ينفق اليهود على المسلمين إذا خرجوا معهم للقتال، أو يظنّ اليهود وجوب نفقتهم على المسلمين، لخروجهم معهم في القتال.

يقول «أبو عبيد» في كتابه «الأموال»، في هذا الشأن: فهذه النفقة في الحرب خاصة، شرط عليهم المعاونة له على عدوه، وإتيا كان يسهم لليهود إذا غروا مع المسلمين بهذا الشرط الذي شرط عليهم من النفقة.

ولولا هذا لم يكن لهم في غنائم المسلمين سهم، وإتيا كان هذا الكتاب قبل أن يظهر الإسلام ويقوى، وقبل أن يؤمر بأخذ الحزبة من أهل الكتاب.

صيانة الأمن وتحرير الجريمة:

وجاء في «الصحيفة»: «وأنه لا يحل لمؤمن أقر بها في هذه الصحيفة، وأمن بالله واليوم الآخر أن يبصر محدثاً أو يؤويه، وأن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل».

والمحدث هو: المجرم أو الجاني، فلا يحل لأحد أتيا كان أن يمنع من إقامة الحد عليه، حيث جاء في الأثر: «من حالت شفاعته دون حد من حدود الله، فقد ضاد الله في أمره».

وقد روي عن السيدة عائشة - رضي الله تعالى عنها - أن امرأة مخزومية سرفت. فقالوا: «من يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فيها» فلم يستطع أحد

يعرف البعض منهم أخبار المسلمين، ثم يقوم بتوصيلها إلى «قريش»، التي تتربص بهم الدوائر، فيما يريد فيه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه كتمان الأخبار عنها، ومن المحتمل أن يخرج البعض من اليهود لتأليب «قريش» على المسلمين، وإشعال نار الحرب.

مخالفة اليهود:

كان المصطفى صلوات الله وسلامه عليه يعلم مدى قوة «قريش» ويتوقع هجومها على «المدينة» في أي وقت من الأوقات.

وكان يدرك أن المسلمين في بداية عهدهم في «المدينة»، وليست لديهم القوة التي يستطيعون بها أن يقفوا وحدهم أمام «قريش»، فعقد معاهدة للدفاع المشترك عن «المدينة» بهذه العبارة من «الصحيفة»: «وأن بينهم النصر على من دهم يشرب»، ليتخذ أنصارا يقفون معه ضد كل من يعاديه من «قريش»، وغيرها.

ولم يعثر عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام المقصود بكلمة النصر هذه، لتشمل المساعدة الحربية، والمساعدة المادية معا.

وقد نصّت «الصحيفة» كذلك على أن رسول الله ﷺ، إذا طلب من اليهود مصالحة حليف للمسلمين فإتهم يصالحونه، وأن اليهود إذا طلبوا من المسلمين مثل هذا فعلى المسلمين أن يجيبوهم إليه.

وقد فعل المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ذلك تأكيداً للتضامن الحربي بين اليهود والمسلمين، وتقوية لوحدة الأمة الشريفة التي أرادها

هذا باستثناء من حارب الإسلام، فيحرم على المسلمين مصالحة من حارب دينهم، وليس من حق اليهود أن يصالحوا أعداء المسلمين، ثم يطلبون من المسلمين مصالحة هؤلاء الأعداء.

ويحول دون انتشار الدعوة وتقدّمها، وإظهارا لقوّة المسلمين، وتهديدا لليهود، بين رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أنّ من ظلم منهم فلن يكون طالما إلا لنفسه.

ولعلّ الرسول ﷺ، كان يشعر بأنّه لن يكون هناك وفاق بين المسلمين واليهود، ولذلك كرّر هذا المعنى في الصحيفة، وذكر هذا التحذير عدّة مرّات، لأنّ اليهود سينقصون هذا العهد، وسيعيدون بها ركّب في نفوسهم الدنيّة من الخسة والتذالّة، والميل إلى الدّس والمعاق، والشقاق والكيد، فأراد صلوات الله وسلامه عليه أن يقيم عليهم الحجة، ويبين سلامة موقفه أمام المولى سبحانه عزّ وجلّ، والضمير، والإنسانيّة، إذا ما عاقبهم على ظلمهم، ونقصهم للعهد، ولذلك كرّر انداره لهم، وقديما قيل في الأمثال: «قد أعدر من أندر»

وأغلب الظنّ أنّ الرسول ﷺ، كان يقصد من هذا الإنذار مع الصراع الدّاخليّ في «المدينة»، بين اليهود والمسلمين، حتّى لا تنتهر «قريش» الفرصة، وتهاجم المسلمين، وتشغل الرسول صلوات الله وسلامه عليه عن شر الإسلام والدعوة إليه خارج نطاق «المدينة».

وبعد هذا الإنذار أورد الرسول ﷺ، ترعيب، إذ أمر بالألا يقوم المسلمون بأيّ شيء نجاه اليهود إلّا في حالة عدائهم للإسلام، فما دام اليهود مسلمين، فالمسلمون موادعون لهم.

تحرير خروج اليهود من المدينة دون إذن :

لقد كان رسول الله ﷺ، غير واثق من إخلاص اليهود له، وكان يتوقّع منهم الغدر دائما، فهم قد جملوا عليه، وطبعتهم مكرّة معه، ولا يعرفون إلى الوفاء سبيلا، ولذلك فقد حرّم عليهم الخروج من المدينة بدون إذنه، ليكون على علم تامّ بأمرهم، وكلّ تحركاتهم، وليكون بآمن من شرهم، إذ ليس من المستبعد أن

وإذا علمنا أنَّ كلمة «الجار» في الإسلام تشمل من يسكن الأربعين بيتاً المحيطة بالمسلم، لعلمنا أن جميع الأمة جيران، وأنها حلقات متصلة في ظلّ المحبة والإحاء، والتعاطف والبرّ، والتراحم والإيثار.

موادّة اليهود:

لقد أقرّ المصطفى صلوات الله وسلامه عليه اليهود على دينهم، وقد أوضحنا ذلك عند الحديث عن حرية العقيدة، وقد جعلهم عليه أفضل الصلاة وأرعى السلام هم والمسلمين أمة واحدة، بقوله في «الصحيفة»: «وأنّ يهود بني عوف أمة مع المؤمنين»، ثم أورد كلّ قبيلة من القبائل اليهودية، أو البطون اليهودية، وجعل لها مثل ما لليهود «بني عوف».

وقد ورد في «الصحيفة»: «ولا يحلّ لمؤمن أقر بها في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً أو يؤويه»، فالمصطفى صلوات الله وسلامه عليه حين يحدّد وصف المؤمن بقوله: «آمن بالله واليوم الآخر»، إنّها يريد بذلك التقريب بين اليهود والمسلمين من جهة العقيدة، بحيث لو رغبوا في اعتناق الإسلام والدخول فيه، لوجدوا تقارباً بينهم وبين دينهم.

وأغلب الظنّ أنّ الحرص على ضمّ اليهود إلى صفوف المسلمين يتّضح في قول رسول الله ﷺ: «وأنّ من تبعنا من يهود فإنّ له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم»، فعبه من الترعيب والترهيب ما فيه.

إقبال الموادّة إذا ما ظلم اليهود:

جاء في «الصحيفة»: «إلا من ظلم أو أثم فإنّه لا يوتغ إلا نفسه»، ويقصد المصطفى صلوات الله وسلامه عليه بالظلم والإثم ما يقع من اليهود من محاولات الغدر، المقصود بها إشعال نار الفتن والحروب، ومقاومة الإسلام، ومحاربة الدعوة، وصدّ الإسلام عنها، الأمر الذي يوقع الضرر بالمسلمين والإسلام،

وقال سبحانه جل شأنه : « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » سورة النساء الآية (٦٥).

وقال سبحانه عز وجل : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا » سورة الأحزاب الآية (٣٦).

وقال سبحانه وهو أصدق القائلين : « مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا » - سورة النساء : الآية (٨٠).

إذا فالمصطفى صلوات الله وسلامه عليه كان يمارس هذه السلطات مهتدياً بأحكام القرآن الكريم، وأن دستور الحكم في الأمة الإسلامية هو القرآن الكريم، والسنة السوية الشريفة، وليس للعرف، أو التقاليد القبلية.

مراماة حق الجار :

لم يحدد المصطفى صلوات الله وسلامه عليه في «الصحيفة» من هو المقصود بالجار، ليدل بذلك على أن هذه الكلمة تشمل كل من جاور المسلم.

ولاشك في أن الجار هو أقرب الناس إلى الإنسان بعد أهله، فمن الممكن أن يعرف أخلاقه وطباعه، فلو رأى رجل من أهل الكتاب لنا ولطفاً وحسن معاملة من المسلم لتألف قلبه للإسلام، وفهمه على حقيقته، وعلى العكس لو رأى غلظة وفظاظة وقسوة مه لفر قلبه من الإسلام، وأساء فهمه، وزاد بعدا عنه، وقد تحدث بينهما مناقشات قد تؤدي إلى منازعات، لا تعود على الإسلام بفائدة، فلا يليق بالمسلم أن يسيء معاملة جاره إن كان على غير دينه، وإنها يحذر به أن يعامله باللبس، ويغاطبه بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن تنعكس شخصية المسلم على تعامله معه.

اشتجار، يخاف فساد، فإن مرده إلى الله، وإلى محمد رسول الله.

وهذا يقرّر الإسلام مبدأ عاما، وقضية طبيعية، وذلك لأن كلّ الجماعات والأمم ينشأ بينها النزاع، ولكن شأن ماين براع يزيد وينمو على مر الأيام، ويتحول إلى أحقاد تتوارثها الأجيال، وبين نزاع سريع الروال، ليحل محلّه الوء والصفاء، وهذا الأخير هو الذي يقصده المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، فهو لا يريد لأئمة نزاعا جاهليا تنسع هوته على مرّ الأيام، ولكنه يريد النزاع الإسلامي الذي لا يلبث أن يروى، وتنقشع صحابته.

ولقد اختار الرسول صلوات الله وسلامه عليه نفسه للفصل في هذا النزاع، لأنه يريد تأليف القلوب، وإزالة أسباب العرقه والخلاف، فحبّه واحترامه يغمر القلوب، قلوب المسلمين جميعا، فلا يخالفون له أمرا، ولا يتخلف واحد منهم عن تلبية دعوته في أيّ أمر من الأمور، ولن يتوانى صاحب الحق في التنازل عن حقّه، والعفو عن ظلمه، إذا ما سمع من رسول الله ﷺ، كلمة تدعوه إلى ذلك.

ويدلّ نصّ «الصحيفة على أن رسول الله ﷺ، هو الذي يقضي في خصومات أهل الكتاب والمشرّكين من أهل «الصحبة»، كما يقضي في خصومات المسلمين، ولعلّه قد اختار نفسه للفصاء بين الناس ليؤكد لهم أنّه هو رئيس الحكومة الجديدة في «المدينة»، بعد هجرته إليها.

ومن الطبيعي أن تعويض السلطات: التشريعية، والقضائية، والتنفيذية، للمصطفى صلوات الله وسلامه عليه يسند إلى آيات قرآنية كريمة، فقد قال المولى تبارك وتعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» سورة النساء الآية (٥٩).

السابق إلى مبدأ حرية العقيدة، وهم لا ينظرون إلى الإسلام إلا بمنظار أسود، يحول بينهم وبين رؤية ما فيه من العدالة والكمال، فلا يرون إلا ظلاماً وهمياً من نسج خيالهم.

التعاون الاجتماعي:

جاء في «الصحيفة»: «وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتْرَكُونَ مَفْرَحًا أَنْ يُعْطَوْهُ بِالْمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ أَوْ عَقْلٍ»، والمفرح هو: الإنسان الكثير الأولاد، والذي كثرت ديونه، فإذا كان من أقارب الأسير ساعده المؤمنون ليستطيع المساهمة في الفداء، وإذا كان من عاقلة شخص جنى خطأ عقلوا عنه، حتى لا تزيد ديونه بسبب عجزه عن دفع ما عليه من الفداء أو الدية، ولثلاً يعجز عن الإنفاق على أولاده إذا دفع ما معه في الفداء أو الدية، وهذا يحقق مبدأ التعاون الاجتماعي، الذي تفخر به الإنسانية.

والمسلمون إذ يعطون المفرح في الفداء أو الدية إنما يحاربون الموت والرق في وقت واحد، فقد كان العرب في الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الفقر، ويقدمون على هذا العمل ولا يبالون بما يفعلون.

وكان المدين عندما يعجز عن دفع ما عليه من دين في الأجل المحدد له تضاعف دينه، وصار كالحقار عند الدائن، يأمر بأمره، ويمتنع عما نهاه عنه.

لقد حارب الإسلام كل ذلك، وقضى على كل الأسباب المؤدية إليه، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه بإعانة المفرح ومساعدته، فكانوا يقومون بسداد دينه، أو إعطائه مالاً عند الشدة، وهذا مبدأ من مبادئ الإسلام السامية التي تسعد البشرية، والتي جاءت بها الشريعة الإسلامية السمحة الغراء.

نظام الحكم:

جاء في «الصحيفة»: «وَأَنَّهُ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ أَوْ

رسالة الرسول ﷺ، وقرباً أو بعداً من دين الحق سبحانه
جلّ وعلا، وقسرياً أو بعداً من وضعيتها ومهمتها بين
الأمم الأخرى.



الهوامش

- ١ هذه رواية ابن عبد البر، صفحة (٩٦)، بأن المواخاة كانت بعد بناء المسجد، وكفكك في رواية الحافظ ابن القيم، الجزء الثاني، صفحة (٧٩)، وقال ابن عبد البر: وقبل: «كانت المواخاة والمسجد ينشأ»، وفي المواهب: إن عقد الأخوة كان بعد قدومه بخمسة أشهر. . الجزء الأول، صفحة (٧١).
- ٢ «إنسان العيون في سيرة الأمين والمؤمن»، الجزء الثاني، صفحة (٩٨).
- ٣ «زاد المعاد في هدي خير العباد»، الجزء الثاني، صفحة (٧٩)، وابن كثير، الجزء الثاني، صفحة (٣٢٦)، وابن هشام، والسهيلي، الجزء الثاني، صفحة (١٨، ١٩).
- ٤ أي: حل أمرهم الذي كانوا عليه.
- ٥ أي: الأسير.
- ٦ قال ابن هشام: المفرح: المثلث بالدين، والكثير العيال. . الجزء الثاني، صفحة (١٧)، ويقول السهيلي: يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَعْمَالِ السَّلْبِ. . أي: من سلبه القرح.
- ٧ أي: طلب دفعاً على سبيل الظلم.
- ٨ المساواة في المعاملة.
- ٩ أي: يكون الغزو بينهم على التناوب بينهم، يعقب بعضهم بعضاً فيه.
- ١٠ من آيات القتال بالمقتول، إذا قتله به، يريد أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، فيها ينال دماءهم.
- ١١ أي: قتله بلا جناية كانت منه، ولا جريمة توجب قتله.

- ١٢ أي: أن القتاتل يقاد يقاد به ويقتل.
- ١٣ أي: جانيا.
- ١٤ جوز أن تكون الصلاة على رسول الله ﷺ في العقد، بعد إضافة الرواة المسلمين فيها بعد.
- ١٥ أي: يهلك ويفسد.
- ١٦ في «البداية والنهاية» لابن كثير: «ولبني الشتطة».
- ١٧ أي: لا يلتئم جرح على ثار.
- ١٨ كذا أوردها ابن إسحاق، وابن كثير، الجزء الثاني، صفحة (٢٢٣)، وابن هشام، الجزء الثاني، صفحات (١٦، ١٧، ١٨)، ويزيد ابن هشام: «ومحمد رسول الله ﷺ»، ونصوص هذه الوثيقة نقلها ابن كثير في كتابه «البداية والنهاية»، الجزء الثالث، صفحة (٢٢٤)، نقلا عن محمد بن إسحاق.
- ١٩ «حياة محمد» للدكتور محمد حسين هيكل، صفحة (٢٤١).
- ٢٠ ررواه مسلم.
- ٢١ «صور من حياة الرسول» للأستاذ محمد أمين دويدار، صفحة (٢٦٧).
- ٢٢ من أراد تفصيلا أكثر حول هذا الموضوع فليرجع إلى:
- أ «وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى» للسهمودي.
- ب «الوفاء بأحوال المصطفى» لابن الجوزي.
- ج «عيون الأثر في فنون المغازي والشهاتل والسير» لابن سيد الناس.
- د «دلائل النبوة» للبيهقي.
- هـ «دولة الرسول في المدينة» للدكتور أحمد إبراهيم الشريف.
- و «في النظام السياسي للدولة الإسلامية» للدكتور محمد العوا.

المراجع

القرآن الكريم:

- ١ «صحيح الإمام مسلم»، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري - مطابع شركة الإعلانات المصرية، بالقاهرة، من طبعة استانيول المحققة، المطبوعة عام ١٣٢٩هـ.
- ٢ «زاد المعاد في هدي خير العباد» للشمس الدين أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية، مطبعة مصطفى الحلبي، ١٣٦٩هـ / ١٩٤٩م.
- ٣ «الدرر في اختصار المغازي والسير» للحافظ يوسف بن عبد البر التمر، دار التحرير للطبع والنشر، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م.
- ٤ «السيرة الحلبية» لإسحاق العيون في سيرة الأئمة والمؤمنين، لعلي بن برهان الدين الحلبي، المطبعة الأزهرية، الطبعة الثالثة، ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م.
- ٥ «السيرة النبوية»، لعلي الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، مطبعة عيسى الحلبي وشركاه، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.
- ٦ «السيرة النبوية»، لأبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، مطبعة مصطفى الحلبي، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م.
- ٧ «الروض الأسف في شرح السيرة النبوية لابن هشام»، لعبد الرحمن السهلي، مطابع دار النصر، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م.
- ٨ «المواهب اللدنية بالفتح المحدث»، لشهاب الدين أحمد بن محمد الخطيب القسطلاني، وبهامشها «زاد المعاد في هدي خير العباد»، المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٢٦هـ.
- ٩ «صور من حياة الرسول» للأستاذ محمد أمين دويدار، مطبعة دار المعارف - القاهرة.
- ١٠ «حياة محمد» للدكتور محمد حسين هيكل، مطبعة دار المعارف - القاهرة.
- ١١ «البداية والنهاية»، لعلي الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، مطبعة السعادة، القاهرة، سنة ١٣٥١هـ.